

# شعب الله المختار ونظرية الحاكمية الاصطفائية

الحاج أوحمنه دواق  
باحث جزائري



قسم الدراسات الدينية

## مدخل:

باعتبار أن التصرفات التاريخية نتاج واعٍ أو غير واعٍ لكثير من التراكمات العقديّة والنفسية والعرفية، فإنّ النظر إلى العالم والحكم على الآخرين، ينبني على وعي بالأشياء، مشدود إلى تقييمات اعتقادية منبثقة عن تصورات الوجود، قائمة على الركيزة الجاذبة التي تلتف حولها جميع معطيات الوجود الأخرى، مادية كانت أم معنوية، ويتعدى الحال المقرر إلى البشر وإلى بعضهم البعض، إذ يسيطر على شكل التواصلات بينهم، بكافة أنماطها وتطوراتها، فهم فارق يمايز بين الذات والآخر، بانطباعات واعتبارات خاصة، فتكون الذات مركزاً، ولها وجد كل شيء، فالعالم بكامله وعناصره، عبارة عن مسخر أو منتج، تكيفه تلك الذات وفق مقاييسها ومعاييرها، والأغرب أن يكون الآخر مصدقاً ضمناً لهذه المقررات، وتُظهر ممارساته هذا الوضع وتبرزه.

## أ- المنابت النظرية لرؤية الاصطفاء الحصري:

بتتبع مفهوم الاصطفاء في الاستعمال القرآني، نجد تداوله تنامي من مستويات تاريخية لأخرى، باعتبار أن الله سبحانه وتعالى قد استخلف البشرية وتولى رعايتها بواسطة أنبياء ورسل قاموا بتوجيه أممهم، والحكم بينهم فيما تخاصموا فيه، والتحاكم إلى شرعهم بما يناسب أهليتهم الأخلاقية والنفسية، وبما يتناسب وتطور الإنسان في الشكل الرأسي؛ أي من نقطة إلى أخرى، ومن جيل إلى آخر، وصولاً إلى تغطية التجول التاريخية التي تعود إليها فيما بعد، وأعني بها لحظة تمكين الكتاب من الولاية الوجودية على الناس "فكل الرسل الذين أتى على ذكرهم القرآن من قبل محمد، وكذلك كل الرسالات، إنما توجهت بخطاب إلهي حصري اصطفائي، يتسلسل من آدم إلى نوح وإلى خلائف قوم نوح، ما ذكر منهم وما لم يذكر، وإلى إبراهيم وذريته من ظهر إسحق وإسماعيل..."<sup>1</sup> وكون الخطاب اتجه حصرياً، فذلك يدل على أن البشرية في مراحل التأسيس على القوميات الذاتية، ولما يترقى بعد إلى أفق الإنسانية الذي ترزخ تحته البشرية، فيكون اتجاهه نتيجة هذا الخطاب للتأهيل حصرياً، في حين أن الانفصال البشري به، ضيقه في نطاقه، ولم يتعد به إلى أوسع مما أريد.

وللزيادة في إبراز المنابت النظرية للرؤية الحصرية، فإننا نشير إلى أن "مفهوم الحركة في التاريخ البشري لا تستوي خصائصه المرحلية في القرآن على التعاقبات الطباقية المولدة عن بعضها عبر منهجية الصراع كما هو الحال في تجربة (أخرى)، بل تستوي كأشكال دائرية بدءاً من الشكل الفردي، إلى الشكل القومي إلى الشكل العالمي..."<sup>2</sup>، مما يفيد تماماً في أن الإرادة الإلهية، حسب روح القرآن وتوجهاته المقاصدية، يتحرك على ضوء رفع الإنسانية من شكل إلى آخر متضمن فيه، ومتجاوز له باستيعابه بعد التمكن منه. فالوضع خالٍ من التراتيبات الطباقية، التي تجعل كل مرحلة كياناً مغلقاً منكفئاً لا صلة له بما سبق أو بما يأتي من مراحل، في حين أن الشكل التطوري الذي يتعامل به القرآن مع التاريخ، في التعبير عن النمو الإنساني وتكامله؛ هو النمط الدائري الذي يبدأ من أكثر الأوضاع فطرية، ثم ما يليها في التركيب، وهكذا وصولاً إلى أغنى وضع ممكن، فالعائلة، ثم القوم، ثم الناس؛ أي البشر في انتقالهم من الحال الطبيعي، تمايزوا فيما بينهم، ثم أمعنوا في الاستقلال بوثبات الوعي، مما يدل على نوع من التقدم، لكن في سياق ضيق دائم، فمن الطبيعة إلى المباشر وجودياً وهو أفراد العائلة للفرد الواحد، وللمجتمع الكبير، الذي لا يعدو العائلة التي نمت وكبرت.

إن روح الاصطفاء؛ أي الاختيار الحصري، تتولد عند تكون الشعور بالفردانية كحالة وذات وصيرورة وتشعب، وتتركز في توسعات التطور وتنقلاته، فتظهر العائلة، وهكذا مثلت المراحل الأولى للإنسانية أكداً وأوضاع العزلة وأظهرها، فاستحال الأمر إلى تجمعات سكانية، على نحو إثني، فأصبحت رؤية العالم عصبوية،

<sup>1</sup> - محمد أبو القاسم حاج حمد: منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، بيروت: دار الهادي، ط1، 2004، ص ص 50-51.

<sup>2</sup> - محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، المكتب الدولي للبحوث والدراسات، لندن، ط 2، 1996. ج 2، ص 23

يضحي الواحد منهم ويتفانى في مضمار ما ينتمي إليه عرقياً، وإلا فإنه إذا أمعن التهديد انتكس إلى الذات الفردية البحتة وخرج من إطار القبيلة. فأضحى بذلك محور العالم وناظمه هو تصورات الفرد وتقييماته، فالوجود يبدأ من عندي وإليه ينتمي، والآخر هو أنا خارجاً عني؛ أي كما أتمثله بالتجاوب مع شرطيات الذات الفردية وإن انفجرت قيمياً، فالقبيلة والعصبية الطبيعية.

ويتضح التحليل أكثر ويمتد إذا برز مفهوم الحصرية في الاصفاء، كانتقاء لجنس معين، وهو في "المفهوم المعاصر نزعة شوفينية من مماثلات الادعاء يفوق العرق الآري الذي تأسست عليه النازية. أما قدسية واصطفاء المكان، فيدرجها كثير من الناس في الدعاوى اللاهوتية، وكثيراً ما يؤكد الإسرائيليون الآن على هذا الاصفاء، بل لولاهم لما خلق الله باقي البشر بأشكال آدمية؛ فالأصل في تركيبة البشر من غير الإسرائيليين أنهم بهائم حولهم الله إلى أشكال آدمية لخدمة الإسرائيليين وليسهل على الإسرائيليين مخاطبتهم والتعامل معهم".<sup>3</sup>

ومقصودنا من إيراد التقرير السالف، هو سحب المعنى المتضمن فيه، على كل التاريخ، من باب أن منطق الأخير ينشأ في أعماقه الأول، لكنه لا يزال مستصحباً إلى يوم الناس هذا، بمعنى أن شكل العلاقات العالمية والصلوات بين البشر هي صدى لتصورات الشعوب عن ذاتها، وفيما إذا كانت أفضل من الآخرين أم مكتملة فيهم ومعهم، والأبلغ في الإيضاح تجربة المجتمع الإسرائيلي قديماً وإلى اليوم، في التجاوب مع الأغيار بمنطق حصرية الاختيارية وتركزها فيهم، فكل ما عند الآخرين نقيسه إلى ما عندنا، وليس في الأميين للقانون من سبيل؛ أي ما تستطيعه قم به، سواء كان مقبولاً إنسانياً أو مذموماً، المهم توافقه مع ما يراه الإسرائيلي. "وفي ضوء تقدم علم الآثار، فإن تاريخ العبرانيين المزعوم، كما أراد حاخامات دولة إسرائيل، الأكثر إظلامية، أن يستخدموه لتبرير ملكيتهم لما يعتبرونه أرضهم الأصلية التي وهبها الله لهم، ولا يظهر إلا كـ "أسطورة" محضة، وهذه هي كل الشرعية التاريخية لدولة إسرائيل الحالية التي يمكن أن توصف بوضوح بالأسطورية".<sup>4</sup>

وقد أشرنا إلى أشكال التطور الثلاثة، وكيف يتدرج فيها البشر ومبلغ انعكاس كل مرحلة على وعي أفرادها ابتداء من التكوين والبناء، وثانياً من حيث الصلات والعلاقات وطريقة التجاوب وأسلوبه، وصولاً إلى الأوضاع الشاملة فرديها وكونيها، وتعاطي البشر مع الكون فيه نصيب غير قليل أيضاً من هذه الروح.

فهذه الأطوار مسماة للإنسان استخلاقاً إلهياً، وأخذ تنميطات متنوعة وموزعة بحسب خصائص المراحل، وباعتبار التوجه العام أيضاً، وهو "كما ذكرناه يعني الفعل الحضاري في الكون ضمن ما هياه الله للإنسان من قدرات ووعي يتكافأ وأوضاعه الكونية، وبمعنى آخر معاودة الاندماج في الرحم الكوني بالوعي بعد أن تم

<sup>3</sup> - محمد أبو القاسم حاج حمد، الأزمات الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004، ص 240

<sup>4</sup> - روجي غارودي: الإرهاب الغربي، ت: داليا الطوخي وآخرون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2004، ج1، ص 51

الانفصال عنه بالخلق، وكما تم الانفصال بالخلق أطوارًا يعود الاندماج بالوعي أطوارًا. والأطوار التاريخية ثلاثة؛ العائلية والقومية والعالمية، تماثل الخلق التكويني للإنسان في الرحم الكوني؛ فتلائية الخلق التكويني باتجاه الانفصال عن الرحم الكوني تماثل ثلاثية الأطوار الحضارية لمعاودة الاندماج فيه؛ أي بالوعي...<sup>5</sup>

فالاصطفاء عملية تربية تاريخية المقصود منها هو التهيئة لما هو أكبر وأوسع، لكن الشعوب القديمة لم تستوعب ذلك قبال التطور الكوني الكلي طبيعيًا، فبقيت تراوح وضعيتها، بالرغم من إطلاقها على كل التاريخ، فقفزت بالخاص إلى العام، والجزئي إلى الكلي، دونما مراعاة للوازم التطور والانتقال المتدرج إلهيًا وكونيًا وتاريخيًا، فانتهى بها الأمر إلى التركيز في الماضي العتيق ومعاملة أوضاع العالم التي تبدلت، بوعي تلك الفترات والحقب، فنشأت التجاذبات والتنافرات التي تدفع البشرية من ثمنها إلى اليوم.

والأطوار الثلاثة، رغم تتابعها واختلافها من حيث طبيعتها، ومنطقها الغالب، والقيم المتحكمة في روح كل فترة منها، إلا أنها ذاتها تتضمن ما يقابلها، ضدًا في كل الجوانب والخصائص؛ بمعنى أن الفردية العائلية وأفقها تحوي تجاذبًا بين شكلين منها، مما يدفع الفرد إلى تحكيم الذاتية المقيتة المتأسسة على الأنانية المفرطة، والمخضعة للجميع لصالح الأنا، والفردية الممعة في سياقات تجارية تصل إلى أفراد معدودين، جامعهم الانتماء البيولوجي على أقل اعتبار، والأبوة والأمومة المباشرة على أقصى تقدير، ونموذج ما قيل على الصعيد الفردي، "كان هناك الصراع بين آدم ومكوناته التي استقطبها عنصر النار... فأدم كان منقسمًا في فرديته تجاه مطلقه الذاتي،... والقوميات في مرحلتها تجسد تقابل المنهجين، ففرعون وقومه كانوا يجسدون وعي المرحلة القومية ضمن ذلك العصر بمطلق ذاتي معين، في حين كان موسى وقومه يجسدون ما يفترض أن يكون المنهج الإلهي".<sup>6</sup>

ووازع التحرك مبعثه الضدية المهيمنة على نوع الحاكمية المتسلطة على توجهات الناس وتحركاتهم؛ فأدم عليه السلام كصورة للنوع الإنساني في مرحلته، عاش تجاذبًا في تفعيل السلوك العام في منطلق ذاتي، تراوح بين قيمية المبدئية، وأنانية عنصر الناس المعطل لنمو روح الفردية الممتدة، حتى سقط آدم وأخطأ؛ فأدرك مبلغ الخطورة في تحكيم منطلق الفردية الأنانية على مسار الإنسانية ككل، وعلى مصيرها بالتبع، فما معنى أن يكون الأكل من الشجرة من آدم؟ كان دالاً على حضور شكل تصرف في العالم وعمل فيه، بوعي المتمكن غير الآبه لمصير من معه، أو من تلاه.

وينطبق التصور ذاته على التجربة الموسوية قبالة التحرك الفرعوني؛ فقد عمد الأخير إلى إخضاع أمة برمتها لشعب آخر، مخالفٍ لها تمامًا، ولم يهتم هو ولا قومه بما يحصل لغيرهم، ما دامت مصالحهم قد تمت

<sup>5</sup> - حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، ج2، ص 25

<sup>6</sup> - المرجع نفسه، ص 26

مراعاتها، والعمل ينجز بمحو الغير وطمس استقلاله، فجاء موسى عليه السلام، ليخرج قومه، لا من مصر كعنوان للأسر، ولكن من حضيض الاستعباد العرقي، المستعمل لهم كجانب عطاء خاص، يعود بالنفع والمردود، لا على المجموع، ولكن على فرعون وملئه، فتدخلت العناية الإلهية، لتضع حداً للاستغلال غير المتكافئ العائد، حتى يظهر لفرعون فداحة الاستبداد للتحكم المتسلط، المتمركز على الاصفاء الخاص، وليس على الاختيار الممتد والمتعدي الأثر للآخرين إيجابياً.

والتقابل المنهجي بين طرفي كل مرحلة، يستتبع شكلاً من التقارب والتباعد في الآن نفسه، تقارباً في شكل المرحلة ذاتها، وتباعداً في محتواها ومضمونها، فأدم القيمة فردياً، يقف في وجهه الشيطان كمعطل للقيمة، ومحرف لاتجاه أثرها في سياق الأنانية المهلكة، وقصة ابني آدم دليل قوي على التقابل، وكذا موسى خلاصة الشعب والقوم الساعي إلى الانعتاق، قبالة فرعون التسلط والإخضاع، لكن دائماً في فلك حصرية التحكيم والحاكمية.

## ب- فارقية الاصفاء بين التقدير الذاتي والنقلة المتجاوزة ربانياً:

يستوجب منا الموضوع، أن نخرج على مفهوم الاصفاء في حمولته القيمية، حتى نسفر عن محتواه أكثر، ببيان الوضع الإلهي للفعل الاصفائي، ومدى التجاوب البشري معه، بمعنى لماذا رفع الله أقواماً بتميزهم وتمييزهم، وأهلهم للتصدي للواجب الإنساني وجودياً، كأمانة تحملها البشر عبر تاريخهم السحيق، وإلى وراثة الأرض من التجربة الأكمل، "...فمفهوم الاصفاء الإلهي للمكان والجنس، يختلف جذرياً عن مفهوم الاصفاء البشري، وبما يماثل الاختلاف الذي أوضحناه بين عبودية الإنسان لله، وعبودية العبد البشري لماله... فالاصفاء الإلهي مسؤولية مرتبطة بالتواصل مع الذكر الإلهي والتسامي الديني الأخلاقي؛ فالاصفاء هو من أجل تشكيل قاعدة إنسانية، وليس فئة عنصرية مستعلية، قاعدة مهمتها خلاص الإنسان في الأرض، وإشاعة الحكمة الإلهية"<sup>7</sup>.

فلما رتب أوضاع الوجود تاريخياً، على منوال الإنسان المسؤول الذي يختاره الله سبحانه لتأدية ما نيظ به، فإذا به يعتقد أنه الأفضل والأحسن لذاته، وليس لدواعي أخرى، وإن كانت فهي في حدوده، وليست متعدية له، فتجمع ضمن حقب التداول التاريخي أنماطاً بشرية، ظنت القداسة فيها وفيما تعمل، فجاوزت حدود الآخرين وتعدت على مقدراتهم بدعوى ما قيل سابقاً، فعوضاً عن أن تكون فئة معنوية إنسانية متعالية على شرطيات الانتماء، ظهرت عينة من الناس تتعالى بما تفقر إليه، فاستكبرت وطمحت وطغت، فعوقبت وانتكست. فإله

<sup>7</sup> - حاج حمد: إبستمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، بيروت، ط1، 2003، ص 150

سبحانه أراد عبادًا وليس عبيدًا، أناسًا أحرارًا وتاليًا يحررون، وليس ظلمة يتعدون ويستلبون غيرهم، بتقرير أفضليتهم واستئلامًا لأحقيتهم.

ومن لازمت انشداد التسلط على الناس، في دائرة الحصرية، الخلو من الروح الدافعة إلى السمو، الراعية لتكامل الوعي بهموم البشرية من حيث ما هي؛ أي تحت ظلال الامتداد الأفقي غير المتعدي أو اللاغي لخصوصيات ذوات الأغيار المخالفين، وهنا يوصف المتمحور في سياق المستوى الذاتي الفردي، أو العائلي، وحتى القومي، بأنه متنكب عن الأهلية، لعدم توفر مقدرة استيعاب المطلوب منه إلهيًا، فيخلو من التقدير القيمي المتعالي، ويوسم بما هو أدنى وأقل من المعتاد طبيعيًا، إذن "فالاصطفاء الإلهي مشروط بالتسامي والوعي، حتى يحمل الإسرائيليون التوراة على حقيقتها... فإذا زيفوا وابتعدوا واستسلموا لأساطيرهم وخرافاتهم، مائل الله علاقتهم بالكتاب كعلاقة الحمار الذي يحمل أسفارًا على ظهره، ولا يعرف ما هو مكتوب فيها."<sup>8</sup> فمن حرم الخير، يحرم غيره بالتبع، ولو عزم من تصدى للاختيار على رفع نفسه إلى الكتاب ومضامينه، لتجوزت كثير من معطلات الرقي البشري في تسيير أمورهم وإدارتها، تحت رعاية متسامية متعالية، فلا تضيع الحقوق، ولا تنن البشرية تحت وطأة التفاوت المقيت، الذي علتة النكوص عن أداء مهمة ولاية الناس والسهر على شؤونهم، فخسروا قيادتهم، وتولى غيرهم إمامة الناس، والسير بهم إلى أرحب وضع، وأفسح تجربة.

وما كان ممن اصطفاهم الله سبحانه، إلا أن نكثوا موثيق الله سبحانه، فتعدوا وظلموا، وفرقوا في المعاملة وأجحفوا، فتولد صراع الناس معهم، فسوغوا لأنفسهم ما لم يوجبه شرط الميثاق تمامًا، فنحوا نتيجة لذلك عن تولي أمور الوجود، إلا ما كان من أنبياء الله سبحانه وأصفيائه، محافظة على أدنى موجبات البقاء وجوديًا، وتمهيدًا لتجارب يتولاها آخرون، فيما يليهم من الأيام، كتداول قام على استبدال الأدنى عقابًا، بالأفضل تربية وتزكية وتعليمًا للكتاب والحكمة. يقول تعالى: "وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانًا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنًا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون\* وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون\* ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون"<sup>9</sup> فالتولي ناشئ عن اعتقاد مفاده، أننا فضلنا لأننا بنو إسرائيل، ولكوننا كذلك يتاح لنا التصرف في الدنيا بمكوناتها، بما فيهم البشر، كما نريد، لا يمنعنا سوى عزوفنا، لكن إذا ظهر التولي، أخذ مشعل البشرية منهم، وأعطى أمة أخرى.

<sup>8</sup> - المرجع نفسه، ص 150

<sup>9</sup> - سورة البقرة، آية: 85/83

ونفهم اعتبار التحليل أكثر، عند معرفتنا أن "الاصطفاء ليس مطلقاً لذات العرق الإسرائيلي بمفهوم شعب الله المختار، وإنما هو تفضيل واصطفاء مقيد بمهمة إلهية وميثاق وعهد، ولهذا حين ادعى الإسرائيليون في مواجهتهم للسيد المسيح بأنهم أبناء إبراهيم، قال لهم: إن الله قادر على أن يخلق من الحجارة أبناء إبراهيم"<sup>10</sup>؛ فالمفارقة تولدت من إطلاق ذاتية العرق، ظناً منهم أن الكفاءة الوجودية ناشئة منه، وليس من تقديرات ربانية لمسؤوليات حضارية تحفظ فيها البشرية حاضرها ومستقبلها، فاستغنى الله سبحانه عن تجربتهم قيادة، وحفظها عبرة وخبرة.

## ج- خصائص حاكمية الاصفاء الحصري ومحدودية التجربة إنسانياً:

من أهم ما يميز التجارب الإنسانية السابقة قبل الإسلام، قصرها على مرحلة بعينها، وعدم تعديها لاستيعاب المطلق الإنساني في كافة نطاقاته ومجالاته، مما يدفعنا إلى تصوير مبعث ذلك اقتضاباً، وكيف انعكس على مميزات ما توالى من مراحل، وكيف اصطبغ أفراد تلك الأيام في شكل ضيق من الحاكمية المفتقرة إلى التدخل الشكلي المباشر والمعجز للإرادة الإلهية، مظهرًا الإنسان قليل النضج، غرًا تعجزه مشكلات الأيام وعادياتها، وبسوقنا للتجربة النبوية في بني إسرائيل إلى سيدنا المسيح، يبرز مبلغ الانتقال الهائل الذي سيحدثه الإسلام تاريخياً وكونياً، "تجربة موسى هي تجربة إيمانية حسية، وعلاقة الغيب بها علاقة محسوسة مباشرة؛ فموسى يخاطب كلاماً أي صوتاً مسموعاً، والخطاب من وراء شجرة ملتبهة، وترافقه المعجزات الحسية المنظورة، من شق البحر وإلى تشقق الصخر ليخرج منه الماء، وإلى تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى، ويكون الخطاب حصرياً لبني إسرائيل، ويأمرهم بالتوطن في الأرض المقدسة، وفي هذا الإطار الحسي المباشر للتجربة الموسوية يأتي التنزيل التوراتي عهداً وقانوناً ووصايا عشر، وتكون الحاكمية لله مباشرة، يمارسها الله سبحانه وتعالى- عبر الأنبياء فلا اجتهاد ولا تصرف، ولا استخلاف، وكلما مات نبي يخلفه نبي، لنقل تعليمات الله المباشرة إلى الشعب الإسرائيلي، بما في ذلك شرائع حسية غليظة أسماها الله (شرعة الإصر والأغلال) في مقابل المعجزات الخارقة عطاء وفي إطار التجربة الإيمانية الحسية المباشرة، فلا فداء ولكن مسخ إلى قرده وخنزير"<sup>11</sup>.

على طول ما أوردناه، إبرازاً لمميزات الحاكمية عندما مورست في إطار حصرية التكليف والاختيار، فإن مبعث ذلك يرجع إلى بيان منابت خصائص الحصرية، باعتبار التجربة النبوية الموسوية في كليتها، بدءاً من العمل المباشر لله سبحانه، وتدخله في تفاصيل الحياة، ورتقها بما يتوافق وما يرده من بني إسرائيل، ويدعوهم إلى تكليمهم حتى يذعنوا له عياناً، ويتجلى لهم في مستويات وجودية متفاوتة، معارضاً عصيانهم بمعجزات

<sup>10</sup>- حاج حمد: إبستمولوجية المعرفة الكونية، ص 339

<sup>11</sup>- حاج حمد: العالمية الإسلامية، ج1، ص 508

لملوسة محسوسة، تأكيداً على حضوره وقوته، ووجوب الانقياد لأوامره، وعدم تخطيها، وأمرهم بسكنى الأرض المقدسة، وطناً خاصاً لهم تعييناً من الله، بمجاورة الآخرين، لكن بتخصيص الأحكام لهم دون غيرهم، وفي ذلك جاءت الوصايا العشر، التي يشرف عليها الله سبحانه، وضعاً وتنفيذاً ومحاسبة، من خلال تولي الأنبياء، بصفة تترى، لا يترك فيها فراغ، ليحتج المخالفون بعدم وجود الناموس الذي يخضعون له. "إنها منظومة حسية متكاملة، تهيمن عليها الإرادة الإلهية المباشرة والحاكمية الإلهية المباشرة، وهكذا يتمظهر المطلق في جبرية الحالة الموسوية اليهودية، كما يتمظهر مطلق الكونية في حالات الحجر والنبات والطائر الذي يطير بجناحيه في جو السماء".<sup>12</sup>

ومع إمعان اليهود في مخالفة الوصايا، والتكذب عن توجيهات الله الكلامية المباشرة، نقلهم إلى تجربة جديدة في الحاكمية، لكن بامتدادات واضحة مع الخبرة السابقة، وهي حاكمية الاستخلاف، التي تولى أمرها الأنبياء الملوك، وأعني بهم داود عليه السلام ومن بعده سليمان، وذريتهما من بعد، في هذه الحقبة احتجب التدخل المباشر، وأتاب عنه الأنبياء الملوك، ومنحهم سلطاناً على العالم التكويني والتشريعي، وولاية على الناس، لكن بتدخل وحضور إلهي فيه بعض التجاوز ومنح الاستقلالية، إذن "...حاكمية الاستخلاف تستوجب الأخذ بصلاحيات المستخلف، وهي غير الحاكمية الإلهية المباشرة التي تمرد عليها الإسرائيليون، وهي تندرج في إطار التجربة الحسية نفسها من حيث المعجزات الخارقة والشرائع والخطاب الحضري لبني إسرائيل".<sup>13</sup>

زيادة على ما أوردناه، نشير إلى الخصائص الكلية للحاكمية القائمة على روح الاصطفاء في النطاق اليهودي الممتد حتى إلى أيامنا هذه، وتجربة الدولة العبرية أظهر معبر، ومن أهم ما تتسم به حاكمية حضرية الاختيار، ما يأتي:

- التحكم الإلهي المباشر، والعمل على خرق القوانين الوجودية التكوينية، إمعاناً في تأكيد وإبراز أهمية الخضوع للقوانين التشريعية، المعبرة بصفة مكتوبة عن الأمر الرباني النافذ.

- تولي الأنبياء تبليغ أشكال الحاكمية وأنماطها، لبني إسرائيل، دونما اجتهاد أو تبديل أو تغيير منهم، إيغالاً في الاستوثاق من الخضوع التام، غير المناقش لبني إسرائيل، على شرط إجابتهم إلى كامل ما يطلبون ويريدون.

- التشريع الرباني، في مرحلة الحاكمية الاصطفائية، متسم بالعقوبات المتأسسة على العقاب الغليظ، الذي وصفه الله سبحانه بشريعة الإصر والأغلال، والتي تعدت إلى تحريم ما هو حلال في حقيقته، عقاباً لهم عن

<sup>12</sup>- المرجع نفسه، ص 508

<sup>13</sup>- المرجع نفسه، ص 509

تجاوزاتهم الممتدة حتى إلى رفض الله علناً، والطلب من أنبيائهم اتخاذ آلهة حسية مثلما عند الأغيار، وتالياً لم تثمر فيهم سنوات الحمل الرباني لهم والرعاية الخاصة. (ويرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم).

- بالتخل من الانقياد المباشر للميثاق المتخذ، لعنهم الله سبحانه، ومسخهم، وركسهم في الخلق، وجعل صفاتهم المعنوية مطابقة لما عند الكائنات الطبيعية، بل جاوز بهم الحد لما هو أبعد وأغور، إذ الكائنات المخالفة تمارس طبيعتها، في حين أن التجربة اليهودية مع الموائيق، أظهرت العجز الكامن في هؤلاء للتوافق مع التشريعات والأحكام المتجاوزة.

- التخلي عن مطابقة الأحكام في شؤون الحياة، يورث تسليطاً للأعداء من خارجهم، والفتنة المتكررة في وسطهم، لبلية رأيهم، وعدم استقراره على وضع، لصرف الوعي قبالة أن الخروج على الأوامر الربانية في نظم الحياة يورث عقاباً مستمراً.

- كل ما جاء من كتب سماوية في هذه المرحلة بأحكامها، مبينة بخطاب حصري خاص لا يمكن تعميمه، ولا تؤخذ الإنسانية بجريرة تطبيقه، باعتبار آنية الاصفاء واتصاله بمراحل التربية التاريخية التي تعرضت لها الإنسانية من الفرد العائلة، إلى القوم، ثم الناس أي بقية العالميين.

- تلازم شرط الهوية بالأرض، حيث أضحى اليهودي يعرف بأرضه، لا بمعيار آخر، وذلك للتأكيد على روح الالتزام والإبقاء على روح المسؤولية، في حدود الأرض، تمهيداً للعبور إلى نطاقات الكون الواسعة، لكن هيهات ممن لا يرى إلا ذاتيته الأنانية، كيف به يبصر رحابة الوجود المتعدي إلى الله سبحانه في عليائه. لذا كانت الأرض مقدسة يسكنها الشعب، ولا يغادرها، وهنا يكون الوطن بمفهوم طبيعي هو الأرض ذاتها، وليس بطرح قيمي متعالٍ، مما يفيد نوعاً من المعقولية المحدودة في نطاق الزمان والمكان، وليس في إطلاق الحال على سائر الأيام، فالأرض لهم لتطبيق الوصايا، لكن بخروجهم عنها، أخرجوا من الأرض على أيدي (عباد لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار).

- تنزل التوراة بمحدودية الشريعة والأرض، لذا لا يصلح إطلاقها نظاماً للحاكمية، لارتباطها بلازمات الوصايا القائمة على التدخل الإلهي في الحاكمية المباشرة، وفي حاكمية الاستخلاف.

- الإذعان ليس منبثقاً عن الوعي المبني على القناعة المبدئية الفردية والجماعية، وإنما على العقوبات المتوالية، التي يردون من خلالها إلى الله عنوة، ومع ذلك يعصونه عنوة، ويتحدون أحكامه، وكلما جاوزوا أغظ الله فيهم وعليهم.

- والتوراة بذلك مجموع أحكام تفصيلية، دقت في الحياة حتى في اللباس وكيفية بناء البيوت، وما يأكلونه من الأنعام وما لا يأكلون، بتوصيفات راجعة إلى البيئة المحدودة، لذا تعجز اليهودية عن مسابرة أشكال

التطورات، وعقمتها عن إيجاد شكل من الحاكمية متوافق مع العصر من جهة، ومع الوصايا من جهة ثانية، لذا اختارت العبرية لكيانها العلمانية طريقاً في تولي الناس الولاية على شؤونهم.<sup>14</sup>

## خلاصة:

كل هذه الخصائص وغيرها تدفعنا نظرياً، إلى طرح بديل قيمي متجاوز، لتسيير أحوال الناس في الخطوط العريضة على الأقل. أما التفاصيل، فهي متوافقة مع روح ما نقدمه بديلاً، لتركز روح الاجتهاد فيه والإبداع. ونعني بالبديل الحاكمية من منظور حضور قيم الكتاب المتجاوزة ومفهوم السلطة المفتوحة...

<sup>14</sup>- حاج حمد: العالمية الإسلامية، الخلاصة.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com